نقد جماعة المهجر من خلال كتاب الغربال لميخائيل نعيمة

1-تمهيد

يرجع قيام المدرسة المهجرية أو ما يعرف بأدباء المهجر إلى هجرة أفواج كبيرة من الشعراء والأدباء والمفكرين العرب وبخاصة من سوريا ولبنان في أواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين حيث نزلوا في كندا والولايات المتحدة ودول أمريكا الجنوبية كالبرازيل وفنزويلا والمكسيك، وقد عملوا على نقل اللغة العربية والأدب العربي إليها ، وأنشأ الأدباء المهجريون أدبا يمثلهم ويعبر عن حياتهم وتجاربهم الجديدة في الغربة، وكان أدبهم هذا هو أدب مدرسة المهجر وهي من مدارس الأدب والنقد العربي الحديث.

وللأدب والنقد المهجريين أهمية كبيرة في ترسيخ معالم التجديد في الوطن العربي، ونقل الأداب من أمة إلى أخرى عن طريق الترجمة، وتأكيد مبدأ التأثر والتأثير بين الأدب العربي والعربي في العصر الحديث.

والرابطة القلمية هي أحد أطراف أدب المهجر(إلى جانب العصبة الأنداسية) الذي اتخذ من الغرب قطبا لإحداث التجديد في الأدب العربي ونقده.

- العصبة الأندلسية :

تأسست عام 1932م في أمريكا الجنوبية وهي أميل إلى المحافظة على الشعر القديم ، ودعم الصلات بين الشعر الجديد والقديم ، أسسها ميشيل معلوف وأصدر مجلة باسمها، من شعرائها فوري المعلوف وإلياس فرحات وسلمى صائغ وفارس الدبغي ونصر سمعان.

- الرابطة القلمية :

بدأت فكرة الرابطة العلمية عام 1916م ، إلا أنها تأسست رسميا عام 1920م في نيويورك (المهجر الشمالي) على يد نخبة من الأدباء أعلنوا الثورة على الشعر التقليدي ودعوا إلى التجديد شكلا ومضمونا . من شعرائها جبران خليل جبران وميخائيل نعيمة وإيليا أبو ماضي... ، تميزوا عن غيرهم باتجاههم الفلسفي في الكتابة وتأثرهم بالمذهب الرومانسي ، وقد أصدرت الرابطة مجموعة أدبية دورية باسمها (مجموعة الرابطة القلمية) أسهم في تحريرها رشيد

أيوب ، كما كانوا ينشرون نتاجهم في مجلة الفنون لنسيب عريضة، أو في مجلة السائح لعبد المسيح حداد ومجلة السمير لإليا أبي ماضي ثم في كتبهم .

عاشت الرابطة القلمية عشر سنوات ثم انفرط عقدها بموت نسيب عريضة وجبران ورشيد أيوب ، وعودة ميخائيل نعيمة إلى لبنان .

2-مظاهر التجديد عند الرابطة القلمية :

- اتجه أعضاء الرابطة القلمية اتجاها رومانسيا ؛ إذ اهتموا بقضية التأمل في الوجود والنفس الإنسانية والطبيعة وقيم الحياة .

وقد عبر ميخائيل نعيمة عن هذا التوجه الرومانسي بقوله : " الأدب الذي نعتبره هو الأدب الذي يستمد غذاءه من تربة الحياة ونورها وهوائها، والأديب الذي نكرمه هو الأديب الذي خص برقة الحس ودقة الفكر، وبعد النظر في تموجات الحياة وتقلباتها، وبمقدرة البيان عما تحدثه الحياة في نفسه من تأثير" .

- ولذلك ثاروا على التقليد ودعوا إلى الاهتمام بالمضامين الإنسانية والتعبير الوجداني دون تعقيد، يقول ميخائيل نعيمة في ذلك: "إن هذه الروح الجديدة التي ترمي إلى الخروج بآدابنا من دور الجمود والتقليد إلى دور الابتكار في جميل الأساليب والمعاني (...). كما أن الروح التي تحاول بكل قواها حصر الآداب واللغة العربية ضمن دائرة تقليد القدماء في المعنى والمبني هي في عرفنا سوس ينخر جسم أدبنا ولغتنا ، وإن لم تقاوم ستؤدي بها إلى حيث لا نهوض ولا تجدد" .

ولكن دعوتهم إلى التحرر من التقليد لم تكن ضد آداب العرب ولغتهم ، بل كانت في سبيل اللغة العربية وأدابها مع الدعوة إلى الابتكار وترك الجمود . فعلى مستوى اللغة دعوا إلى التحرر من الأساليب الكلاسيكية ، مع محافظتهم على مميزات اللغة العربية من قوة وإحكام في الصباغة وسعوا إلى تحميل المفردات والتراكيب دلالات جديدة توافق طبيعة العصر فجبران خليل جبران مثلا كان كثير الإعجاب والحفظ للشعر الجاهلي مع دعوته للابتكار والتحرر اللفظي والبياني في الشعر لتأثره بالأنب الأمريكي .

- اهتموا بالوحدة العضوية في القصيدة وهي عندهم وحدة المعنى والعاطفة والخيال .

- تركزت مضامين أدبهم في الحرية والحنين إلى الوطن، ووصف الطبيعة، والتأمل الوجودي والألم والحزن والنزعة الإنسانية .

أما على مستوى النقد الأدبي فأبرز من يمثله في الرابطة القلمية هو الناقد ميخائيل نعيمة بآارانه النقدية حول وظيفة الأدب ومهمة الناقد ومنهجه ويظهر ذلك في مؤلفه النقدي القيم (الغربال) .

3- كتاب الغربال لميخائيل نعيمة :

ولد الأديب والناقد اللبناني ميخائيل نعيمة في جبل صنين بلبنان سنة 1889م، سافر في عام 1905م لإتمام دراسته في أوكرانيا حيث أمضى فيها خمس سنوات ، وفي العام 1911 انتقل إلى الولايات المتحدة الأمريكية لإتمام دراسة الحقوق فيها . بعد أن أنهى ميخائيل نعيمة دراسته في الولايات المتحدة الأمريكية لم يعد إلى وطنه لبنان، بل استقر فيها ما يقارب العشرين عاما وحصل خلالها على الجنسية الأمريكية كما انضم إلى أدباء المهجر وأسهم في تأسيس الرابطة القلمية .

في عام 1932م عاد ميخائيل نعيمة إلى لبنان واستقر في بلدة الشحروب والتي جذبه إليها طبيعتها الساحرة وحبه للتأمل، وبقي فيها حتى عام وفاته 1988م.

أما عن تجربة ميخائيل نعيمة الأدبية فقد كانت تجربة غنية جدا، وكان واحدا من أهم الأدباء العرب الذين أسهموا في النهضة الأدبية والفكرية العربية في النصف الأول من القرن العشرين، وقد تنوعت الكتابات التي قدمها بين القصص والروايات والأشعار والمقالات والمسرح والنقد ، تجلت فيها أراؤه وفكره العقائدي والسياسي والفلسفي والاجتماعي منها ديوان همس الجفون، ومسرحية أباء وأبناء، وكتاب الغربال .

يعد كتاب الغربال الذي صدرت طبعته الأولى سنة 1923م، من الكتب المهمة في النقد العربي الحديث وهو مجموعة مقالات نشرها الناقد في الصحف وبعض مقدمات أعماله ، يقوم الكتاب على بيان مفهوم الغربلة التي توازي عملية النقد، وقد تناول نعيمة في كتابه عديد القضايا النقدية .

أ- الشعر والشاعر عند ميخائيل نعيمة:

يتفق ميخائيل نعيمة في رؤيته للشعر مع رواد التجديد رومانسيي الاتجاه، في تعبيره عن الوجدان وعلاقته بالنفس والتعبير بصدق عن عواطفها ومكنوناتها الداخلية يقول : " إن أول ما أبحث عنه في كل ما يقع تحت نظري باسم الشعر هو نسمة الحياة، والذي أعنيه بسمة الحياة ليس إلا انعكاس بعض ما في داخلي من عوامل الوجود في الكلام المنظوم الذي أطالعه فإن

عثرت فيه على مثل تلك النسمة أيقنت أنه شعر (...) ومتي أيقنت أن فيما أطالعه شعرا ميزته من سواه أولا باتساع مداه بعمقه، وعلوه، وانفراج أرجائه. وبعد ذلك... دقة تركيبه وحلاوة رنته، وطلاوة ألوانه وما أشبه وآخر ما أعيره انتباها هو الأوزان والقوانين العروضية والقواعد اللغوبة، فالشعر الذي ينزل بفكري إلى أغوار تحت أغوار، ويعلو به إلى سموات تلوح من ورائها سموات ويفتح لحياتي أفاقا خلفها أفاق، ويفسح لعاطفتي مدى يجرها إلى أمداء هو الشعر الذي تستأنس به روحي وتتفتح له براعم الحياة داخلي".

من خلال هذا النص تلاحظ بأن ميخائيل نعيمة يركز في مفهومه للشعر على تعبيره عن الحياة بصورة عامة، ثم يعرض جملة مكونات ترتبط بالشكل (الوزن والقافية واللغة والصور والأساليب) والمضمون (في اتصاله بالحياة وتعبيره عن وجدان الشاعر وصدق تجربته بمكوناتها من لغة ومعنى وعاطفة وخيال) ، إذ ينبغي توفرها كاملة ليحكم على الشعر يشعريته من عدمها، وهي ما تتحقق لدى القارى من خلال ما تحدثه من أثر وانفعال استجابة للتجربة.

لذلك هو يرى أنه لا يجب النظر إلى الشعر من جهة تركيبه وتنسيق عباراته وأوزانه وقوافيه فقط ، ولا باعتباره قوة حيوية مبدعة مندفعة إلى الأمام ، إنما الشعر في الحقيقة ليس الأول وحده ولا الثاني فقط بل هو كلاهما.

وفي ذلك يرى نعيمة أن الشعر لا بد أن يعبر عن المكون الذاتي للشاعر بعناصره وهي الوجدان، والعاطفة والخيال والبعد عن التكلف ما يعبر عن صدق التجربة .

فالشاعر عنده هو النبي والفيلسوف والمصور والموسيقي والكاهن الذي يستطيع أن ينقل الحياة بكل ما فيها من صور مليئة بالحيوية، تجعل القارئ يستجيب لها وكأنه يعيشها، فهو يرى بعينه مالا يراه كل البشر، ومصور لأنه يقدر أن يكسب ما يراه ويسمعه في قوالب جميلة من صور الكلام، وموسيقي لأنه يسمع أصواتا متوازنة (...) وأخيرا الشاعر كاهن لأنه يخدم إلها هو الحقيقة والجمال، وفي ذلك تأكيد على مبادئ الرومانسية في النظر إلى المبدع في تعبيره عن الصلة بين النفس والحياة من خلال إبداعه.

2- النقد والناقد عند ميخائل نعيمة :

النقد الأدبي عند ميخائيل نعيمة هو تقويم العواطف والأحاسيس والأفكار، والتمييز بين جيدها ورديئها ، وجميلها وقبيحها ، فالنقد عنده يكمن في التمييز بين الأعمال الأدبية، وقد شبه العملية النقدية بعملية الغربلة التي تهدف إلى فصل الجيد من الرديء عبر ثقوب الغربال .

وقد رأى نعيمة أن الناقد في هذه العملية ليس مقوما ومرتبا وممحصا فحسب، وإنما هو مبدع ومولد و مرشد.

- **مبدع** ؛ لأن الناقد يكون سببا في خلود هذا النص من عدمه.
- **مولد** ؛ فالناقد يبدع كما يبدع الأديب ، فهو عندما يقوم بوضع المقاييس الأدبية يكشف نفسه للأخرين.
- **مرشد**؛ لأنه يطلع الأنباء على محاسن أعمالهم ومساوئها .

ويؤكد ميخائيل نعيمة على ضرورة الفصل بين العمل الأدبي ومؤلفه في العملية النقدية، فمهمة الناقد الحقيقية الغربلة ، " لكنها ليست غربلة الناس، بل غربلة ما يدونه قسم من الناس من أفكار وشعور وميول ... والناقد الذي لا يميز بين شخصية المنقود وبين آثاره الكتابية ليس أهلا لأن يكون من حاملي الغربال "، إذ تظهر نظرته الموضوعية إلى العمل الأدبي من خلال ذلك، ولكنه ينزرع نزعة رومانسية ذاتية، ويحدد منهجه بالانطباعية.

فغاية النقد في نظر نعيمة تنحصر في تسجيل انطباعات الناقد، يقول: " إن لكل ناقد غربال لكل موازينه ومقاييسه وهذه الموازين والمقاييس ليست مسجلة لا في السماء ولا في الأرض ، ولا قوة تدعمها وتظهرها قيمة صادقة سوى قوة الناقد نفسه" .

ثم يقول: "هناك خلة لا يكون الناقد ناقداً إذا تجرد منها، وهي قوة التمييز الفطرية تلك القوة التي توجد لنفسها قواعد ولا توجدها القواعد، والتي تبتدع لنفسها مقاييس وموازين ولا تبتدعها المقاييس والموازين، فالناقد الذي ينقد حسب القواعد التي وضعها سواه لا ينفع نفسه ولا منقوده ولا الأدب بشيء إذ لو كانت لنا قواعد ثابتة لتمييز الجميل من الشنيع، والصحيح من الفاسد لما كان من حاجة بنا إلى النقد والنقاد "

فهو يركز على القوة الفطرية لدى الناقد التي تمكنه من وضع مقاييسه الخاصة لتقييم العمل الأدبي، وقد سمى محمد مندور منهج ميخائيل نعيمة بالمنهج التأثري الذاتي ، وأساسه الذوق وهو ما يؤكد على اتجاهه الرومانسي ، باعتباره يركز على ذاتية الناقد .

والملاحظ أن ميخائيل نعيمة يؤكد على النقد الذاتي (الانطباعي) من جهة، ويؤكد على حاجة الأدب إلى مقاييس ثابتة مطلقة من جهة أخرى ، فهو لا يبلغ درجة الأدبية إلا إذا تميز باستجابته لهذه المقاييس ، ، ويكون أثمنه أجلاه بيانا، وأغناه حقيقة وأطلاه رونقا وأشجاه وقعا .